

تقديم وتمهيد..!

عندما لا يحترق القلب شوقاً، والروح عذاباً، والذهن همّاً، فلا تتكلم..
وإلا فلن تجد أحداً يصغي إليك.

وعندما لا يملأك الشعور بأنّ دعوتك هي قلب الكون، وروح الوجود،
وأثماً ميزان العالم، وصمّام أمنٍ وأمانٍ له، فكيف تواتيك الشجاعة لمواجهة
العالم كله؟!

وعندما لا يلتهب في دمك عرقٌ بطولي عارم يدفعك لتحدي قدرات هي
أعظم من قدراتك، وإمكانات هي أعظم من إمكاناتك، فكيف إذن
ستحرق المتحديات وتصنع الأعاجيب؟!

وعندما لا تشعر بمسؤوليتك في إنقاذ الإيمان مما يحيق به من خطر عظيم
في العالم كله، فكيف تريد إذن من هذا العالم أن يفتح أذنيه لسمعك؟!

وعندما لا يصدر كلامك مُحمّلاً باللطاف من الشفقة والرحمة بأولئك
المجذومين روحياً ومعنوياً، فإن كلامك معهم لا يزيد عن كونه ثرثرة لا
يترك أثراً في أحد.

وعندما لا تحسُّ بأنفاس الملائكة تمازج أنفاسك وبرفيف أجنحتها
يلاطف وجهك شاهدةً على ما ينطق به لسانك فلن تشمّ رائحة الصدق
الذي من دونه لا تتفتح لكلامك قلوب الآخرين وعقولهم.

وعندما لا تدفعك مسؤوليات الدعوة لزيادة الإدراك، وفهم توجهات العالم الروحية والفكرية، واكتشاف اللغة التي يمكن من خلالها أن يفهمك فأنت عابث غير جاد، والعاثون من الدعاة يضررون ولا ينفعون ويؤخرون ولا يقدمون.

وعندما تصاب الروح بالفتور، وتنخفض درجة حرارة القلب، ويخبو أوارُ الفكر، فأنت متوعك روحياً، فعليك أن تصمت، لأن الصمت هنا أبلغ من كل كلام ميت تقوله.

وإن لم تطرح نفسك التي تضايقك وتعذبك بعيداً خارج نفسك فكيف يظهر كلامك ويتقدس فعلك!؟

وإن لم تشرق شمس اليقين بالنصر في سماء كيائك فكيف يكون كلامك دافئاً وصوتك قوياً!؟

وإن لم ترتب بيتَ نفسك أولاً فكيف تستطيع أن ترتب بيوت نفوس الآخرين!؟

وإن لم تكن نفسك جميلةً فكيف تستطيع أن تجمل نفوس الآخرين!؟
هذه بعض ملامح عامة يمكن استخلاصها من هذا الكتاب القيم. فمؤلف الكتاب الداعية الكبير الأستاذ الفاضل فتح الله كولن - أمد الله في عمره - له في مجالات الدعوة إلى الله تعالى معاناة وتجارب وأحداث ووقائع يمكن أن يفيد منها الدعاة في كل مكان، وله في هذا الشأن مبتكرات وإبداعات أسهمت في بناء صرح إيماني عظيم على المستويين المادي والمعنوي تكاد تغطي خارطة تركيا الحديثة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. فضلاً عن إنجازات مثلها في أقطار أخرى خارج تركية.

وعلينا ونحن نقرأ هذا الكتاب ألا نتابع انطلاقات قلم الكاتب وحدها، بل علينا إلى جانب ذلك أن نتابع انطلاقات روحه، فالقلم يوميئ ويشير إلى هذه الانطلاقات إلا أنه قاصر عن التعبير عنها.

وخير ما يترجم عن انطلاقات روحه ويفصح عنها، هذا الصرح الإيماني العظيم بقدميه الراسختين في الأرض، وبقيته التي تكاد تلامس السماء، وعندها نستطيع أن ندرك عظمة الروح وقوة الإرادة عندما يجتمعان في الداعية ماذا يمكن لهما أن يفعلا.

والكتاب -بعد هذا الذي قلناه عنه- كتاب فريد في نوعه، إذ هو ليس كما قرأنا من كتب في الموضوع نفسه بل يمكن أن نطلق عليه عنواناً آخر، فنقول: إنه كتاب في (فقه المعاناة والألم) من أجل الدعوة، بالإضافة إلى كونه قدحة تضيء الجوانب العميقة للإنسان وما تطفح به من نازع إيماني فطري عميق، والكتاب يكاد كله يكون عملية تحريكية لهذه الفطرة المدركة، وترجمة رؤاها، والتعبير عن أهدافها ومقاصدها، كما أنه -أي الكتاب- ضدّ الفوضوية الروحية والفكرية التي تعاني منها الدعوات. وهو يهدف إلى إرساء قواعد أساسية منظمة في (العمل الدعوي) تحول بين الداعية والتفلت إلى مجالات أخرى غير ملتزمة وغير منضبطة، وبذلك تحتفظ الدعوات بقواها وتمنعها من الانفلات والتبدد في غير فائدة ولا طائل.

والأستاذ يرى: كما أن الحياة التي نعيشها ونستنشق أنفاسها عملٌ فنيٌّ جماليٌّ خلّاق، أبدعه الخلاق العظيم، فكذلك ينبغي أن تكون "الدعوة" حياة تحيّا بأنفاس الدعوة وتتحرك بداينية أرواحهم، وعلى قدر ما يعطونها من حياتهم وينفخون فيها من أرواحهم وعقولهم تنمو وتكبر وتتسع، وعلى قدر توجههم إلى الله تعالى والاستمداد من رحمته، والتضرع إليه، والوقوف بذلة ببابه، تتقدس دعوتهم وتطهر وتجمل حتى تصبح ذوقاً كلّها، وخلقاً كلّها، وأدباً كلّها، وتظلُّ بصمتها بصمة لا يخطئها أحد بين بصمات الدعوات.

والإيمان عند الأستاذ فتح الله -كما يكشف عنه في هذا الكتاب- طاقة حركية ينبغي أن تتحرك على جميع الجهات، وفي جميع الجوانب، فهي في الوقت الذي ترفع الإنسان إلى سماوات عالية من الإدراكات الروحية، فإنها

في الوقت نفسه تجوب الأرضَ وتتسلَّلُ إلى مفاصلها وشرائينها لتبعث الحياة في روحها الثقيلة، ودمها المتجمد. فعظمة الإيمان عظمة كوكبية كونية متحركة، إذا وقفت عن الحركة انطفأت وماتت، كأبي كونيٍّ آخر من كونيات هذا العالم الذي جعل خالقه حياته في حركته.

وعظمة الروح وقوة الإرادة اللتان تنبعثان من شخصية الأستاذ (فتح الله) تندفقان منه نحو طلبته كما تندفق شعاعات الفجر في بقايا من ظلمة الليل. فهو يقاسم طلبته حياتهم، ويقاسمونهم حياته، فهو فيهم باعث دراية ويقظة، وهم فيه باعث نظر وتأمل وحنو وإشفاق، هو ضميرهم إذا تكلم أو صمت، وهم ضميره إذا تكلموا أو صمتوا، وهو دموع أجزائهم وهم دموع أجزائه، وهو قلبهم إذا تَرَّمَّ شجىً، وهم قلبه إذا فاض حزناً وأسىً، وإنهم ليرون في أجزان أستاذهم عالماً من القوة الكاسحة التي لا يقف أمامها شيء، وهو يرى في أجزائهم عالماً من قوة إيمان لا يؤودها شيء ولا تثقلها فادحات الخطوب، وأن يمين الدهر مشلولةٌ دون الوصول إليهم، وإرادة الشرِّ على صلابة أصلاهم ستتكَسَّرُ.

وهم يرون فيه سرّاً إلهياً خفياً إن تكشَّف لهم بعضه إلا أن أبعاضه الأخرى لم تتكشَّف بعد، وربما سيأتي زمانها ويحين حينها، لذا فإنهم يتلقون ما ينفت به وحي ضميره، وينشق عنه فكره، وينفجر عنه فؤاده، بكل الاحترام والتقدير والولاء.

ولأنَّهم يرونه قبضة من طينة الحق فإنهم لن يترددوا لحظةً واحدةً في حوض البحار والقفار من أجل الإيمان الذي كرَّسوا حياتهم ووجودهم في خدمته. فما الحياة كما يعلمهم أستاذهم إلا لحة بين أبدين، ولحظة متحركة تفصل أبد الماضي عن أبد الآتي ما أسهل أن يتجاوزها الإيمان دون أن تَمُسَّ هدوءه الجوهرى في الأعماق.

* * *

والأستاذ هنا لا يُعَلِّمُ بَقَدْرٍ ما يناجي، إنَّه هنا رُوحُ كرواح النَّاي يناجي
حَبَّاتِ القلوب، ويسكَبُ أنينه ونواحه في الأرواح، إن آلام الإسلام في ستة
من القرون الماضية قد تجمَّعتْ كُلُّها في روحه، فذاق حزنها وليس
شجاءها، وغُصَّ بمرارتها، ولكنَّ هذا الأسي، وهذا الشجوا ليس أسي يأس،
ولا شجوا قنوط، إنما هو أسيٌّ في ذوب من الضياء، وحزنٌ في هالة من
الأمل، إنه حزنٌ يعمِّقُ قوَّةَ النظر ليرى الأعمق والأبعد، وفي الأعمق والأبعد
يكمن الأمل، ويأتي الفرج.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا
الأمين.

أديب إبراهيم الدباغ

obeikandi.com

مقدمة

الإنسان كائن يتردّى إلى أسفل السافلين بما فيه من أنواع الضعف، ويتسامى على الملائكة بفضائله ومزاياه. فكل فكر تربويّ لدى تقيّمه للإنسان يبقى ناقصاً وقاصراً ما لم يأخذ بنظر الاعتبار هذه المزايا وأنواع الضعف معا.

والإسلام ينظر إلى الإنسان كلاً واحداً لا يتجزأ؛ يتناول جوانب ضعفه بأسلوب الترهيب والزرع ويعامل جوانب فضائله ومزاياه بأسلوب الحث والحض. ولهذا نرى مباحث الخوف والرجاء، والجنة والنار، والرحمة والغضب ترد متعاقبة وبصورة متوازنة في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة. فأتمّودج الإنسان في الإسلام ليس ذلك الذي أصبح يائساً مشلول القوى لا حراك له من شدة الخوف، ولا ذاك الذي طغى و تفرعن من شدة الأمل والرجاء.

والحياة الدينية لا تتحقق ولا تدوم إلاّ بالأحكام والقوانين، فبينما ينفذ الإنسان في عالم المعنى بتقوية حياته المعنوية، يؤخذ تحت رقابة بعض الأحكام الجزائية من جهة أخرى، لإدامة استقامته وصيانتها من الزلل والتسكّب عن الصراط السوي. بيد أن ظاهر أوامر هذه الأحكام الجزائية قد يبدو مكدّراً ممضاً، إلاّ أنه عندما يُنظر إلى النتائج المترتبة عليها والتي تؤول إليها، ستظهر في الأقل أن تلك الأحكام هي لصالح الإنسان كأحكام الترغيب والترهيب وسيشرق وجه صبح مليح كحورالجنة تحت ذلك الوجه الذي بدا قمطيراً.

لقد أفلست جميع الأنظمة التي تناولت الإنسان من جهة واحدة. والتي لم تعلن بعدُ إفلاسها تحت السير نحوه؛ ذلك لأن هذه الأنظمة محرومة من

الحقيقة والواقعية ومن حياة متوازنة وفقها. فالنتيجة المحتومة لهذا الحرمان هي الإفلاس والانهيار.

فنحن إذن من هذه الجهة مضطرون لدى تقييمنا للإنسان أن ننظر إلى الأحكام الإسلامية من زاوية نظر الأخلاق الإلهية، تلك هي أخلاق القرآن. وغايتنا الأساس ينبغي أن تكون إراءة الناس طريق التخلق بأسمى الأخلاق التي تخلق بها سيد العالمين ﷺ. أليست غاية بلوغ الإنسان كماله التخلق بهذه الأخلاق السامية؟

إن الأحكام الإسلامية يمكن ضمها مقدماً في مجموعتين أساسيتين. ولعل أقصر تعبير يمكن أن نطلقه عليها هو أحكام "أنفسية وآفاقية".
ففي الأولى: ما يجب على الإنسان فعله لدى بناء روحه وإعمار عالمه الداخلي.

وفي الأخرى: ما يجب عليه العمل نحو الخارج.

إن على كل فرد أولاً أن يمضي حياته المعنوية الخاصة به في حدود الاستقامة، حيث إن جميع أركان الإيمان تتميز بإكساب الفرد هذه الاستقامة. وهي موجودة فعلاً و بمستوى معين في كل فرد مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر. ولكن هذه الاستقامة ينبغي أن تعزز بالعبادات التي نطلق عليها "الأعمال الصالحة" كي تصبح ملكة وطبعاً ملازماً للفرد. فيحقق الفرد ما يجب عليه في نطاقه الخاص من هذه الأحكام الإسلامية بالعبادات المفروضة من صلاة وصيام وزكاة وحج، فضلاً عن تعضيد حياته الروحية وتزيين عالمه الداخلي بـ"النوافل". ولا بد أن نذكر هنا أن هذه الأحكام لا تنحصر في ما يجب أن يؤدبه الفرد، بل تتعدى إلى ما يجب عدم القيام به من أعمال أيضاً. بمعنى أن اللجنة في طرف من هذه الأحكام وفي طرفها الآخر جهنم، أو بعبارة أخرى إن الأحكام تظهر في طرف منها الثواب وفي طرفها الآخر العقاب. وهذا هو التوازن بعينه.

وعلينا أن نتناول المسألة من زاوية الحقائق والواقع البشري. فالخالق سبحانه وتعالى خلقنا بشراً، مركباً من أنواع من النقاىص إلى جانب أنماط من الفضائل. علماً أن هذه الخاصية لا توجد في مخلوقات أخرى بمقدار ما توجد في الإنسان. فالحيوانات لا تستطيع تجاوز الحدود المرسومة لها، ولا مسؤولية عليها لعدم تمتعها بأية إرادة جزئية. و الجن متخلف عن الإنسان كثيراً من حيث الاستعدادات، ومعلوم أن تركيب الشياطين مندمج مع السيئات إلى حد غدت الشياطين لا تعمل إلاّ للشر وحده. أما الملائكة فاستعداداتها محدودة أيضاً، واستعملنا كلمة "محدودة" لبيان أن طريق التكامل مسدود أمامهم قياساً بالإنسان. وبينما الملائكة مصنوعون من القيام بالعصيان نجد الشياطين محرومة من القيام بالطاعة. أما الإنسان فقد خلق على وفق استعدادات قابلة للحسنات والسيئات بنفس المقدار. فكما هو مرشح لأن يترقى إلى أعلى عليي المخلوقات يمكن أن يتردى إلى أسفل سافليها.

إن الإسلام في فعالية مستديمة وحث دائب لإزالة السيئات إزالة تامة بما جاء به من أحكام وأوامر. فالطريق الأسلم الدائم للوقاية من البعوض هو تخفيف المستنقعات. ولا جدوى من التشكي من ثعبان ضخم والعجز عن محاولة إزالته بعد أن كان القضاء عليه ميسوراً وهو صغير. و نعتقد أن تناول الموضوع من هذه الزاوية، لدى تدقيقنا للأحكام الإسلامية، يكون وسيلة لدرك المسائل بشمولية أكثر.

وإن من الطرق والأصول التي تحقق الهدف والغاية في الأحكام الإسلامية، كون الترهيب مع الترغيب والأمر بالمعروف مع النهى عن المنكر والثواب الحق جنب الجزاء والعقاب. فالأخذ بالعقاب تجاه السيئات والعوامل المؤدية إليها - أي تخفيف المستنقعات - محاولة لقلع جذور السيئات كلياً.

نحاول في هذا الكتاب الذي بين أيديكم أن نتناول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بجوانبه المختلفة ومن زواياه المتنوعة. والمهم في الأمر أن

بجعل انطلاقتنا في البحث وقاعدتنا في الدراسة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد أحكام الإسلام ونضعه نصب أعيننا دائماً ونقوم بهذه الحقيقة المسائل. نأمل أن نغتم من هذا التقييم أبعاداً جديدة وكثيرة في فهمنا لأصول الإرشاد والتبليغ في الإسلام.